مسافة المساء لة : دراسة حجاجية في كتاب الفاضل في صفة الأدب الكامل

د. فالح عبد الله شلاهي

جامعة واسط / كلية التربية الأساسية / قسم اللغة العربية

The Distance of the Question: An Argumentative Study in Al-Fadil Book in the Description of the Complete Literature

Falih Abdullah shalahi

fshlahi@uowasit.edu.iq

Abstract

This study seeks to lay open the fundamentals of philosophical thought which is based on the proposition of the question and the distance's determination in Al-Fadil book in the description of the complete literature by Al-Washa'a. It is also an attempt to search about the apparent and the interior of the absent aspects in the rhetorical discourse, via examining the answers which function the role of questions, which hereby give a degree of light and prominence to the knowledge, and by the way, it will be apart from the silent and restrained answers to the questions. Rhetoric, as a wealthy work like all other sciences, endures the philosophization to stimulate the mental field rather than it has only concerned and monitored the aesthetic aspects, and has the mastery over the field of rhetorical criticism. Therefore, it has prompted thinkers and philosophers to search for other appearances that can be equivalent to its aesthetic and entertainment aspects because the human concern is in an urgent need to call for the argumentative aspect and the novelty in the discourse, since the philosophization works to use both rhetorical aspects (namely, argumentative and novelty of discourse) to establish a general rhetoric which figuratively improves if the choice of enunciations aesthetically perceive, able to approximate distances, and rhetoric possesses the logic that qualifies (it), to weaken any single thought, and to fulfill the hiatus that captures the mind of human being and ties it up.

مسافة المساءلة: دراسة حجاجية في كتاب الفاضل في صفة الأدب الكامل

ترغب هذه الدراسة بالكشف عن مقومات الفكر الفلسفي القائم على مساءلة السؤال وتحديد المسافة في كتاب الفاضل في صفة الأدب الكامل للوشّاء.

وهي محاولة للبحث عن الجوانب المغيبة في ظاهر الخطاب البلاغي وباطنه، من خلال الوقوف على الإجابات المرتدية لبوس الأسئلة التي تمنح المعرفة درجة من التوهج والبروز، مباعدة الإجابات المسكتة المكبّلة للأسئلة.

والبلاغة كونها علمًا ثرًّا كباقي العلوم، تحمل هذا التفلسف لتنشّط المجال الفكري بعد أن دأبت على الوقوف ورصد الجوانب الجمالية، وتسيدها في مجال النقد البلاغي، مما دفع مفكرين وفلاسفة للبحث عن وجوه أخرى تكافئ الجوانب الجمالية والامتاعية؛ لأنّ الهمّ الإنساني بحاجة ماسّة لاستدعاء الجانب الحجاجي والجدة في هذا الطرح. إذ يعمل التفلسف على الاستعانة بكليهما في إنشاء بلاغة عامَّة تتمظهر بالمجاز، حين تحسن الاختيار للألفاظ عند وقعها على السامع، وهي كفيلة بتقريب المسافات، وبلاغة تمتلك المنطق الذي يؤهلها أن تضعف أحادي الفكر، من أجل هدم الهوة التي استحوذت على العقل الإنساني وكبلته.

الكلمات المفتاحية: المساءلة، التفلسف، مايير، المسافة، الأجوبة، البلاغة العامة

دأب العقل الإنساني على آلية تفكير امتدت زمنًا طويلًا للحصول على إجابات جاهزة، لذا نجده يتكئ على اليقينيات، رغبة منه في الخلوص إلى إصدار القيم المرجوّة، فضلا عن فضّ النزاع الحاصل، وعلى الرغم من أن الإجابات المرجوة ليست هي الغاية المنشودة ولا سيما بعد تطور العقل الإنساني، وجدل الأنا القابعة في الجوهر، وحوارها المستمر مع النفس مما حدا بالسؤال أن يأخذ على عاتقه الولوج في مسار جديد والابتعاد عن القار والراكد والسير عبر ممر يسمح له بالتربع على عرش التفكير.

معينًا بذلك على بروز آلية مغايرة في التفلسف ومنهجية تحمل في طياتها رؤية تفكيرية مباعدة في اللغة والعقل، فإخضاع السؤال للمساءلة هو ما بشر به (مايير) في مشروعه الذي انماز به عن الآخرين من خلال علم الأشكلة[267].

رغبة منه في إقامة نظرية بلاغية قائمة على مساءلة السؤال، لأن الخلوص أو الوصول إلى الأسئلة ومفاتشتها هي الجوهر الحقيقي لأيّ نظرية أو مشروع.

من هنا بعث (مايير) بإشارات واضحة تشير إلى أهمية السؤال، وعدم نفعية الجواب، وأفاد بأن الأسئلة المستمرة هي التي تقدح المعرفة عوضًا عن الركون إلى الإجابات، متوافقا مع رؤية (سقراط) الذي أولى عناية كبيرة للسؤال وتفضيله على الجواب[268]. وعلى الرغم من هذه المفارقة يرصد البحث ثمّة اهتمام كبير لدى الكثير من المفكرين والفلاسفة بالأجوبة وهذا ينعكس سلبًا على نمو المعرفة ويؤشِّر على وجود أزمة في الفكر الإنساني بشقَّيه.

ففلسفة افلاطون من خلال نظريته في المثل تشير إلى أن الغاية المرجوَّة هي الأجوبة وليست الأسئلة، لأن الحقيقة تكمن في رحم الأجوبة[269]، وهي "فضاء القول الأصيل عنده"[270] في حين عد أرسطو السؤال "وجهًا من وجوه الجدل"[271] رغبة منه في إبعاده عن الإجابات المموَّهة والمغالطة التي امتلكها السفسطائيون[272]، إذ يقول أرسطو " إذا كنت معتزما على السؤال أن تستنبط الموضوع الجدلي الذي فيه ينبغي أن تأتي بالحجة"[273]، ولا تبتعد الرؤية الديكارتية بعد أن وهبت الذات المكانة الكبيرة "المؤسسة للكوجيتو أنا أفكر اذن أنا موجود والذي يسعى ديكارت من خلاله إلى إثبات وجود الذات من حيث موجود ومفكر والبرهنة على وجودها بفعلها الذي هو الفكر، لأن التفكير يفترض الوجود حتمًا"[274]، ولا يفارقان كل من (كارناب) في وضعانيته، و(هودغر) في عدمية هذا الطرح[275].

ومثل هذا الأمر يجد الباحث أن المسافة تتسع مساحتها في الثقافة الشرقية والعربية والإسلامية، لأنها كانت تخشى الإجابات المتعددة أو المؤولة، لأنَّها تسعى إلى غايتها وهي الغلبة على الخصوم، بسبب تفشي النزاعات وعدم قبول الآخر لهذا تكون الإجابات المسكتة هي ضالتها، مما هيأ لها أن تصدأ فضلًا عن الفهم الظاهري للنصوص دون الغوص في قاع المعنى والذي يفضي بدوره إلى إنتاج دلالات جديدة.

إذ يضع الباحث يده على إشارات في متن الكتاب المقدس كانت كاشفة لآلية مغايرة عما ساد عن آلية الإجابة الجاهزة لتفتح المجال أمام المعرفة أن تقدح عن طريق الأسئلة وكيفية تجليها. قال تعالى: **(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)**[276] والكيفية هنا لا تعني التشكيك في قدرة الذات الإلهية وإنَّما عدم الوقوف على حدّ ما من المعرفة والدعوة إلى سبر الأغوار المجهولة أي سألتك " ليسكن قلبي بالمعاينة المضمونية الى الاستدلال"[277]، إذ تعدّ ثنائية

---

[267] - ينظر: الحجاج والبلاغة وعلم الأشكلة، م ميشيل مايير، ترجمة ادريس جبري: 116

[268] - ينظر: الحجاج في البلاغة المعاصرة-بحث في بلاغة النقد المعاصر، د.محمد سالم محمد الأمين الطلبة:134.

[269] - ينظر: بلاغة الاقناع في المناظرة، د.عبد اللطيف عادل:34.

[270] - الحجاج عند ارسطو، هشام الريفي، بحث ضمن اهم نظريات الحجاج من ارسطو الى اليوم، اشراف حمادي صمود:70.

[271] - الحجاج في البلاغة المعاصرة:134.

[272] - ينظر: الحجاج في الخطاب السياسي المعاصر، د.زكريا السرتي: 35.

[273] - منطق ارسطو، ارسطو طاليس، ترجمة عبد الرحمن بدوي: 726/3.

[274] - البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار، محمد علي القارضي، بحث ضمن اهم نظريات الحجاج من ارسطو الى اليوم، اشراف حمادي صمود: 388-389.

[275] - ينظر: الحجاج والبلاغة وعلم الأشكلة : 116.

[276] - البقرة: 260.

[277] - تفسير الجلالين : 58.

السؤال/الجواب كما في قوله تعالى (**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا**) [278]، مظهر من مظاهر الحوار التواصلي القرآني، فتشي ثنائية (يسألونك–قل) في المتن القرآني عبر سياقات متنوعة تقارب اثني عشر سياقًا أو موضعًا عن تبادل الحركة الكلامية، وعلى الرغم من ارتدائها لبوسًا حكائيًا واستحضار (قل) وتملكها طاقة إقناعية كبيرة من حيث بعدها الدلالي باعتبارها بنى جوابية للفعل (يسأل) فضلًا عن البعد القداسي الذي يحمله النص فينشط الحوار عبر هذه الثنائية وتتبدد المسافات على صعيد بنيتي المداخلة والمبادلة في المحاورة[279]، وتقنع المتلقي المحايد بأنَّها ستنسف الجبال وآراءهم المضللة، وتتباعد المسافة بالنسبة للمتضادّ في المحاورة كما جاء في قوله تعالى:

(**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**)[280]

إذ نجد الإجابة مسكتة ومسلّم بها على الرغم من عدم إعطائها الإجابة الكافية التي تقنع الآخر المضادّ، ويقف الاستفهام متحيرًا أمام اللاحقة (وما أوتيتم من العلم إلّا قليلا) إذ يعتقد الباحث هنا الدعوة للبحث عن ماهية الروح وماذا يعني أمر الربّ بذلك، وليست التسليم والوقوف على حدّ معين من المعرفة ، إذ يذكر صاحب الميزان "وربما يتجوز فيطلق على الأمور التي يظهر بها آثار حسنة كما يعد العلم حياة للنفوس ((أومن كان ميتًا فأحييناه)) أي بالهداية إلى الإيمان وعلى هذا المعنى حمل جماعة مثل قوله: ((فينزل الملائكة بالروح من أمره)) أي بالوحي وقوله تعالى: ((وكذلك أوحينا اليك روحًا من أمرنا)) أي القرآن...فذكروا أنه تعالى سمّي الوحي أو القرآن روحًا لأن به حياة النفوس الميتة"[281]، فآدم كرم عن سائر المخلوقات وبه تعمر الأرض.

المساءلة بين التأويل والتكثيف:

من هنا يستفهم الباحث، هل اخضاع السؤال للمساءلة هو لون من ألوان الإجابة المكثفة؟ التي تتطلب منا جهدًا كبيرًا وممارسة تناصية تعتمد على البعد المعرفي المكتسب الذي يحمله المتلقي على نحو ما جاء في إجابة خلف الأحمر حين سئل عن البلاغة فقال: "لمحة دالة"[282]، إذ نجد ثمة فهم متقدم يتجاوز ممن عرف البلاغة هي " تصحيح الأقسام واختيار الكلام"[283] أو حين امتلكت القدرة " على التحرك الشكلي، والتحرك العميق للكشف عن الفصاحة"[284]وغيرها لترتمي بأحضان السيمياء متخذًا من الحركة وسرعتها وحسن توقعها وإصابتها للمعنى وبلوغها المقصد المنشود.

ونلحظ المشكل يتكرر حين سئل الخليل بن أحمد الفراهيدي عن البلاغة فقال: "كلمة تكشف عن البغية"[285]. نلمح في رؤية الخليل الذهاب باتجاه البلاغة العامة من خلال الكشف عن الغاية المراد الوصول إليها والهدف الذي يصبو إليه كأن يكون عما يجول في قاع الوجدان وما تنفثه النفس من ترجمة للآهات الى كلمات، أو الكشف عن الحجة أو البينة المرجوَّة بعد إصابة الموقف بضبابية المشهد إذ هي دعوة الى بلاغة عامّة "تسعى إلى دمج التيارين باعتبارهما (إقليمين) متداخلين في منطقة واسعة كما عبّر أوليفير وبول في مقال له بعنوان: الصورة والحجة"[286].

ونلمح للبلاغة تعريفًا آخر يتمظهر بأسلوب مختلف، وبصورة مغايرة حين سئل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي عنها "يكون للكلام حد لا يدخل فيه غيره، ولا يدخل في حد غيره"[287]، إذ إن هذا الموضع يحيلنا إلى ثنائية الاتفاق والاختلاف من خلال

---

[278] - طه : 105.
[279] - ينظر: بلاغة الاقناع في المناظرة: 114.
[280] - الاسراء : 85.
[281] - الميزان في تفسير القآن، للطباطبائي: 191/13.
[282] - كتاب الفاضل في صفة الادب الكامل ، للوشاء:1/ 38.
[283] - البيان والتبيين، للجاحظ: 77/1.
[284] - البلاغة العربية قراءة أخرى، د.محمد عبد المطلب: 6.
[285] - كتاب الفاضل في صفة الادب الكامل ، للوشاء:1/ 39.
[286] - أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، د.محمد العمري: 31.
[287] - كتاب الفاضل في صفة الادب الكامل ، للوشاء:1/ 39.

آلية يرسمها مباعدا فيها بين البلاغة والكلام اليومي غير البلاغي، أي أن ثمة حقول متشابكة في المعجم اللغوي الذي يمتلكه المتكلم إلّا أن هناك خيطًا رفيعًا يفصل بينهم ويرسم حدودهم وهو المائز بينهما، يمكن أن أسميه إن جاز لي نظامًا فطريًا مكتسبًا يعمل على الاختيار المختزل في الذاكرة ولا يسمح له أن يعطي إيعازات أو أوامر مغالطة أو مخالفة للذوق والدربة، بل تأتي متّسقة.

هل يمكن لي أن أسمي كل هذا مساءلة؟ أم هو بعيد عن المساءلة؟!.

مساءلة السؤال (التفلسف)

إذا ما اتفقنا على ان قيمة التفلسف هو جوهر عمل (مايير)[288]، وبهذا أعاد له المكانة " باعتباره مبدأ فلسفيًا بامتياز"[289]، لذا توجب علينا معرفة التفلسف مع الأخذ بنظر الحسبان بأنه ليس الاكتفاء بطرح الأسئلة فحسب، بل هو أبعد من ذلك، إذ يجد فيه هو "التفكير في التمفصل بين الأسئلة والأجوبة"[290] إذ إن الإجابات تتشظى إلى أسئلة متعددة منها ما ينتج عن معرفة متنوعة وليست مقتصرة على فهم السؤال وحده مجردًا عن (اللوغوس) الذي يحمله، فالعلاقة البلاغية بين السؤال والجواب التي لا تكتفي بالاجابات المباشرة إذ تغيب البلاغة وتضمحل في هذه الحالة وتنشط وتنمو عندما تكون الإجابة غير حرفية ومباعدة عن المباشرة، فلو سئل رسولنا الكريم (صلّى الله عليه وآله) عن التواصل!! نجد إنَّ إجابته (صلّى الله عليه وآله) لم تكن ثمّة بلاغة للمساءلة تمنح المعرفة التوهج والنمو إنَّما تكون الآلية (سؤال–جواب) لكن الحال يتغير إزاء إجابة الرسول (صلى الله عليه وآله) على سؤال مفترض ننفتح من خلاله على أسئلة كثيرة تقدح الذهن وتمتحه إذ ينشط السؤال كما جاء في خطبته المباركة التي جاء فيها "أيها الناس عليكم بالتواصل والتعاطف والتبادل، ولو لم تجدوا صلة الرحم إلّا بالسلام ، وكونوا عباد الله اخوانا...الخ"[291] إذ يجيب الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله) عن أسئلة لم تطرح عليه ولم يصرح بها على مسامعه الكريمة، بل جاءت على هيئة أجوبة قبلية يضمنها ويلوكها الواقع المجتمعي وهو من يقوم ببثها من خلال رصده لإشكاليات وممارسات خاطئة لو مكّن لها تكون قادرة وكافية على الحط من قدر المجتمع الفردي والأسري والإنساني، لذا أشار الرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله) من خلال هذه الملاحظات الى أسئلة كثيرة تتشظى منها معالجات لقضايا عديدة من خلال الدعوة إلى الاتفاق في الآراء، وعدم الاختلاف وقبول الاخر وبث روح المحبة وبذل اقصاها في سبيل الآخر، فجاءت الدعوة بعد أن صدأ المجتمع بالتفكك والتباعد وعدم التواصل، والرسول الأعظم (صلّى الله عليه وآله) يعي حجم المخاطر التي تولدها هذه الآفات، لذلك كانت له رؤية استشرافية من خلال التركيز على السلام وجعله آخر حلقة للوصول بين المختلفين فهو كفيل في ترميم العلاقة المتشنجة وهو مبدأ أساس في قبول الآخر في مجتمع متنوع.

وفي خطبة الامام علي (عليه السلام) وما جاء جراء قضية التحكيم وما كان عليه من أمر قال الإمام بعد حمد الله والثناء عليه والشهادة لله ولرسوله (صلى الله عليه واله) "أمّا بعد، فإن عصية العالم الناصح الشفيق، تورث الحسرة، وتعقب الندامة، وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة بأمر، ونحلتكم رأيًا، ولو كان يطاع لقصير أمر! ولكنكم أبيتم ، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى *** فلم تستبينوا النصح إلا ضحى الغد"[292]

إذ عملت على إصدار نتيجة حتمية إلى كلّ من يتخذ مثل هذا الموقف، فضلًا عن بروزها للمتلقي لتكشف زيف الموقف حيث تنفتح على أسئلة كثيرة جلبتها في أثنائها على نحو التفكيك والضعف جراء التشكيك يقابله الاصطفاف والقوة جراء التصديق للآخر رغم مكره، وانصهار رأي الامام عليّ (عليه السلام) أمام العقل الجمعي وسطحيته يقابله في الطرف الآخر اندماج الفرد مع الجماعة على الرغم من ضعف حجته وعدم صدق دعوته فهو بذلك لم يشرع حكمًا قضائيًا أو فقهيًا تجاههم على الرغم من العنوان

---

[288] - ينظر: الحجاج والبلاغة المعاصرة:134.
[289] - الحجاج وعلم الأشكلة:116.
[290] - المصدر نفسه والصفحة نفسها.
[291] - كتاب الفاضل في صفة الادب الكامل:1/ 42.
[292] - المصدر نفسه: 44/1.

الذي يحمله الإمام علي (عليه السلام) أميرًا للمؤمنين وخليفة للمسلمين بل سعى إلى إعطائهم حكمًا نفسيًا يتقاسمهم بين الحسرة والندامة، مصدّقًا بذلك بسلطة المثل عند استعارته لحادثة قصير بن سعد• ومن ثم ختم الحكم بسلطة الشاهد الشعري (لدريد بن الصمّة) ومن خلاله تحدث " عن حجة الماهية أو الذاتlargument delssence وتتمثل في تفسير حدث أو موقف ما أو التنبّؤ به انطلاقًا من الذات التي يعبر عنها أو يجليها ويوضحها"[293]

ونجد ثمة انفتاحًا كبيرًا في قول إسماعيل بن طريح "أرى عقول الرجال في أقلامها"[294]حيث ينمو هذا القول في الكشف عن إشكاليات منها: كيف يتسنى للكاتب أن يخفق في كتاباته وحرية التفكير والتعبير متاحتان له إذا ما قورن بالحديث مباشرة مع الاخرين، أنّى له أن يكون غير مقنع بعدما أتيح

له من الفراغ البياض والمساحة الورقية والزمن اللازم، فضلًا عن التجرّد التام والخلوص بموضوعية.

فالمساءلة موجودة في جميع العلوم ومنها البلاغة وهي بذلك تكمن في حديثنا اليومي وفي وظائفنا وفي ترقيننا للأفكار وفي منازلنا عبر أطروحة يراد لها أن تمرر عن طريق المحاورة والمفاوضة، فعرَّفها (مايير)أنّها " تفاوض الاختلاف بين الأفراد حول سؤال معين"[295]، فهي عنده غير متجاوزة فلا يستطيع الانسان التخلص منها تحت أيّ مسمى، لأنّها تحمل في أثنائها الإمتاع والإقناع في آن واحد. أي بلاغة عامّة على العكس مما كان سائدًا في السابق في الوقوف على محمل واحد دون الآخر، فهي ذات طبيعة قابلة للحمولات بأجمعها، لكن يسلط الضوء على واحدة ويركز عليها دون الحمولات الأخرى، في حين يركز على الوجدان كان يترك الاقناع والتيقن والاستدلال والعكس كذلك عند الوقوف على الحجاج يترك الإمتاع، لذلك عدّت هي العنصر المحرك والنشط للحياة والمدنية وتكشف وترصد التأثيرات على الانسان وتؤدي إلى الاختلاف بين الأفراد في صياغة السؤال واقتراح الجواب مما ينتج التفاوض بين المتحاورين تلك هي نظرية المساءلة وعلاقتها ببلاغة الحجاج والحجاج يعني به طرح سؤال وإن دارت فيه الاختلافات بوجهات النظر يجب مفاوضة المسافة بينهم[296].

والمسافات تتسع وتتقلص بحسب العلاقة الرابطة بين المتحاورين، هل هما متحابان أم متخاصمان أم متفقان أم مختلفان ويرصد الباحث ثمّة مسافات متنوعة في متن الفاضل تتلون وتتمظهر بحسب حاجة الموقف يكشف عنه المتفاوضين والبحث عن آلية لإقناع الآخر عبر الأجوبة التي تنفتح الى أسئلة متنوعة، فالمسافات في ضوء ذلك:

1- المسافة الموضوعية.

2- المسافة السلطوية.

3- المسافة البراغماتية (النفعية).

4- المسافة الايدلوجية.

5- المسافة العقدية (الدينية).

1- المسافة الموضوعية:

إذ نجد أنّ هذه المسافة تكاد تكون مغيّبة ولم يكن ثمة مؤشر على ظهورها وإن ظهرت لدى طرف من الأطراف إلّا من على سبيل الايهام الذي يقع به الطرف الآخر فيوكل الأمر بانبثاق الأدلة المنطقية للظهور من أجل إقناع المتلقي، فالأنا تخفت وتذوب من أجل المجموع ليتسنى لها الوصول للغاية المرجوّة، إذ يتمثّل هذا النوع من المسافة في رواية ابن عائشة قال: "وفد الراعي على عبد الملك بن مروان، فلما دخل عليه أنشد:

• - قصير بن سعد صاحب جذيمة الابرش، كان قداسا على سيده ان لا يأمن الزباء ملكة الجزيرة.

[293] - الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، د.سامية الدريدي: 228.

[294] - كتاب الفاضل في صفة الادب الكامل: 40/1.

[295] - الحجاج وعلم الاشكلة: 120.

[296] - المصدر نفسه: 116-117.

فإن رفعت بهم رأسًا نعشتهم وإن لقوا مثلها في قابل فسدوا

قال عبد الملك: فتريد ماذا؟ قال: ترد عليهم صدقاتهم، وتدر أعطيتهم، وتنعش فقيرهم، وتخف مؤنة غنيهم. قال: إنَّ ذلك لكبير، قال: أنت أكبر منه، قال: قد فعلت فسلني حوائجك، قال: قد قضيتها، قال: سلني لنفسك. قال: لا والله، لا أشوب هذه المكرمة بالمسألة لنفسي"[297]

اذ نلحظ انعدام المسافة بين الذات والمجموع فينصهر فيتحدا حتى أصبحا واحدًا فتتنازل الذات عن مآلها' لأنَّ غايتها المجموع.

وفي حوارية عمر بن عبد العزيز وما يحمله من زهد وتواضع حين انتهت آلية الخلافة والخوض في غمارها، فضلًا عن خوفه من هول المكانة والرياسة، وما تؤول إليهما من أمور لا يحمد عقباها هو ذلك الخليفة المستفهم الذي يطلب العون من الاخرين من دون تردد بل بكل تواضع على الرغم من الأمر الذي وكلَ إليه وعنوانه.

إذ جاء في دخول " سالم بن عبد الله، ورجاء بن حيوة، ومحمد بن كعب القرظي على عمر بن عبد العزيز بعد أن استخلف، فقال عمر: يا سالم قد ترى ما ابتليت به من هذا الأمر، فهل عندك من فرج، قال: نعم، قال: عظني وأوجز، قال: يا أمير المؤمنين، إنّ الدنيا عطن مهجور، وأكل منزوع، وعرض بلاء ومستقر آفة، يحوطها التنكيد ويطويها الذل، وتحت كل مسرور منها غرور...قد رغب عنها السعداء، وقد انتزعت من أيدي الأشقياء، فاجعل الدهر يومًا واحدًا صمته عن شهوات الدنيا...فقال عمر:لا حول ولا قوة الا بالله"[298]. حيث تتنزل السلطة العليا وتذوب مع الآخر وتندمج المسافات فيصبحا معا في إيجاد النفاذ من المحتوم إذا ما استبد في السلطة.

ونجد في مفاوضة الحكماء الموضوعية في أوجها، اذ لم تكن الغاية فيها الأعلمية والغلبة، بل كانت من أجل المعرفة الحقّة مما هيّأ للإجابة أن تحاور وتفاتش المنطق مما مكنها الوصول إلى نتائج منطقية وموضوعية يقف العقل أمامها مقرًا بقبول هذه الأطروحة إذ جاء في مكاتبة حكيم إلى حكيم"إنّي سألتك عن ثلاثة أشياء إن أجبت عنها تلمذت لك، فكتب إليه أن: سل وبالله التوفيق، فكتب اليه، أي الناس أولى بالرحمة، ومتى تضيع أمور الناس، وبم تتلقى النعمة من الله تعالى ذكره، فكتب إليه: أولى الناس بالرحمة ثلاثة: البر يكون في السلطان الفاجر، فهو الدهر حزين لما يرى ويسمع، والعاقل في تدبير الجاهل، فهو الدهر متعب مغموم، والكريم يحتاج إلى اللئيم، فهو الدهر خاشع ذليل، وتضيع أمور الناس إذا كان الرأي عند من لا يقبل منه، والسلاح عند من لا يستعمله، والمال عند من لا ينفقه"[299]، فأقبل الحكيم المستفهم على تلك الأطروحة التي مررها الآخر المجيب فتقبلها بموضوعية فتتلمذ عليه، فبدت سلطة الحكيم العليا أن تتنزل من مكانتها وثم تعمل على تصاعدها.

2- المسافة السلطوية:

في هذه المسافة يكون البون شاسعاً بين المتفاوضين أو بين الخطيب والمستمع أو بين باث الخطاب ومتلقيه، وذلك بسبب عدم الاتفاق، ويكاد يكون الحوار معدومًا، بل ومستعصيًا بسبب اتساع المسافة، إذ يعمل باستدعاء المتكلم التهم الجاهزة وإلقائها على متلقيه على نحو التجاوز على السلف الأمراء الخلفاء، فهذا الأمر تبنته السلطة الأموية تجاه رعاياها في مصر فينساب الخطاب من رمزية التحذير (إنما قلمت أظفاري عنكم ليلين مسّي ايّاكم) لتهيئة متلقيه إلى التصريح العلني بالعقوبة والمصحوب بالقسم (فوالله لأقطّعنّ بطون السياط على ظهوركم...) كما هو ماثل في خطبة عتبة بن أبي سفيان التي جاء فيها: "يا حاملي ألأم أنوف وطئت بها أعين، إنّما قلمت أظفاري عنكم ليلين مسّي اياكم، وسألتكم عن صلاحكم لكم، إذ كان فسادكم راجعًا عليكم، فإذا ما أبيتم إلّا الطعن على الأمراء والعيب على السلف والخلفاء، فوالله لأقطّعنّ بطون السياط على ظهوركم، فإن حسمت داءكم، وإلّا

[297] - كتاب الفاضل في صفة الادب الكامل: 1/68-69.
[298] - كتاب الفاضل في صفة الادب الكامل: 1/147.
[299] - المصدر نفسه: 2/159.

فالسيوف من ورائكم، فكم موعظة لنا قد صمّت عنها آذانكم، وزجرة لنا قد مجَّتها قلوبكم...الخ"[300]. فغرور السلطة واضح وجلي في النص أن تعتقد بأنّها هبة الله إلى الرعية، وما على الأخيرة إلّا الطاعة والتنفيذ، فهم ترجمان حكم الله على الأرض.

وفي خطبة معاوية بصفين نجد المسافة السلطوية واضحة وجلية من خلال تمهيده للحرب إذ يكشف النص عن البراعة التي يمتلكها معاوية حيث يعمل على مشاطرة متلقيه في مقدمات مشتركة نحو (الحرب صعبة مرة والسلم آمن ومسرة) وهي مقدمات كافية لرضوخ متلقيه، ومن ثم يعمل على تغليف الأطروحة المقصودة بأطر جمالية رغبة منه في ميل جنوده تجاهها كوصفه للحرب (أمهم وهم بنوها)، وسرعان ما بدت وتيرة المسافة بالتصاعد والتباعد، ويكشف التهديد عن لثامه وما يروم القيام به داعمًا أطروحته بالسلطة الشعرية، وما لها من دور في تقعيد وترسيخ الفكرة وإضعاف متلقيه أمامه، مما جعلهم أمام أمر واحد لا بديل له، وهو القبول دون تردد، فتنحسر الآراء التي يمكن لها أن تظهر أمام رأي السلطة والتي عبرت عنه في الخطبة التي جاء فيها: "أيها الناس إنّ الحرب صعبة مرة، وإنّ السلم أمن ومسرة، ألا وقد زبنتنا الحرب وزبناها، وألفتنا وألفناها، فنحن بنوها وهي أمّنا، أيها الناس استقيموا على الهدى، ودعوا الأهواء المضلّة، والبدع المردية، ولست أراكم بعد الوصية تزدادون إلّا استجراء، ولن أزداد بعد الحجة والإنذار عليكم إلّا عقوبة...وما مثلي الا كما قال قيس بن رفاعة الانصاري:

من يصل ناري بلا ذنب ولا ترة.....يصل بنار كريم غير غـــدار

أنا النذير لكم مني مجاهـــــرة.....كي لا ألام على نهي وانذار"[301]

وثمة أمر مغاير في مسافة السلطة الابوية البايلوجية إذ نجد فيها لونًا من ألوان الوجدان الخفيّ، فتتباعد المسافة ولو بشكل مموّه فتتنزل من الأعلى الى الأسفل في إعادة ولده إلى جادة الصواب تلك الجادة التي عرف بها أسلافه عن طريق التأنيب والتجريح ويختم رسالته بسلطة شعرية، لما لها من أثر على المتلقي، حيث جاءت المكاتبة التي بعث بها يحيى بن خالد بن برمك إلى ولده الفضل بن يحيى والي خراسان لما بلغه عنه إقباله على الملذات وهماله الرعية، فكتب إليه: "أما بعد فقد بلغني عنك ما كنت جديرًا بغيره، وقد يهفو ذو الحلم، ويزل ذو الحنكة، ثم يعود إلى ما هو أولى به، حتى كأنّ أهل دهره لم يعرفوه إلّا بذلك...

ولذة الأحمق مكشوفة...يرصدها كل حسود رقيب[302]

3- المسافة البرغماتية (المنفعية):

أما في وضع المسافة البراغماتية المنفعية حيث تستدعي الذات بعد أن تحتل مكانة كبيرة مما يهيئ لها أن تبحث عن وسائل عديدة في الخلوص من الحال التي هي فيها، وفي هذا اللون من المسافة تتوهج الكفاءة بين المتفاوضين وتتقلص المسافات خوفًا عليها من المجهول، إذ ترد في إخبارية أبي جعفر أحمد بن عبيد عن العتبي اتساع الذات والتخلي عن مبادئها، فيصبح خصمه بعد قتاله محببًا له وكلمات الإطراء والمديح تنفث على لسانه ليس إيمانًا منه بمصعب، بل الخوف من الموت الذي يلاقيه عن طريق الحوارية المموّهة، وإسناد صفات له عن طريق معجم أحد الشعراء "أخذ مصعب بن الزبير رجلًا من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه، فقال: أصلح الله الأمير، ما أقبح بي أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يستضاء به، فأتعلّق بأثوابك وأقول: أي ربّ سل مصعبًا فيم قتلني، قال: اطلقوه، قال: اجعل ما وهبت لي من حياتي في خفض، قال: أمرت لك بمائة الف درهم، قال: فاني أشهد الله، وأشهد الأمير أن لابن قيس الرقيات نصفها، قال: ولم؟ قال: لقوله:

إنما مصعب شهاب من الله.....تجلّت عن وجهه الظلماء"[303]

---

[300] - كتاب الفاضل في صفة الادب الكامل: 45/1.
[301] - المصدر نفسه: 45/1.
[302] - كتاب الفاضل في صفة الادب الكامل: 106/1-107.
[303] - المصدر نفسه: 76/1.

ونرصد في حوارية أخرى تقهقر الذات المتلقية بعد أن اتسعت المسافات فكان لزامًا عليها أن تقلص المسافات بسبب تجاوزها، مما حدا بها الاختيار الصائب في حسن الإجابة رغبة منه في إنقاذ الذات من العقوبات التي تنتظرها، حيث تسير عبر آلية منطقية غايتها النجاة من خلال عرض خصال حميدة وكبيرة للآخر، والحط من قدر الذات المعتدية كما روي "أن سلم بن نوفل الدؤلي كان سيد قومه، وأن رجلا من قومه وثب على ابنه فجرحه، فأتى به سلم، فقال: ما آمنك من انتقامي، قال: ما سودناك الا لتكظم الغيظ، وتحتمل جهل الجاهل، قال: فإنّي قد كظمت غيظي، واحتملت جهلك، وعفوت عليك، خلوا عنه. فولى الرجل وهو يقول:

تسوّد أقوام وليسوا بسادة...بل السّيد المعروف سلم بن نوفل"[304]

ولا يقتصر هذا اللون على نمط من الناس كالضعفاء والبسطاء فقط، بل يشمل فوق هؤلاء، والغاية هي الظفر والنجاة مما يؤول إليها، حيث يروى أنّ الشّعبي بما يمتلك من مكانة لم تكن كافية دون استدعاء هذا اللون من المسافة في تخليص نفسه من المكروه الذي ألم به، كما في النص بعد خروجه على الحجاج، فقال: "وأنت ممن خرج علينا يا شعبي، فقال: أصلح الله الأمير أحزب بنا المنزل، وأجدب بنا الجناب، واكتحلنا السهر، واستحلسنا الخوف ووقعنا في حرب لم نكن فيها بررة اتقياء، ولا فجرة أقوياء، فقال: صدق والله ما بروا بخروجهم علينا، ولا قووا إذ خرجوا الينا، ولقد كفروا وفجروا. اطلقا عنه"[305].

فاعتراف الشعبي أمام مغلوبه بالكفر والفجور كان سببا في انقاذ الذات وقبول الحجاج هذه الأطروحة والعفو عنه.

4-المسافة الفكرية الايدلوجية:

أما فيما يخص المسافة الفكرية فهي تتشظى بين الاتفاق تارة والاختلاف تارة أخرى، حيث تكون متلازمة إذ يصعب فصلها، وليست فقط قريبة وإنّما مندمجة ومنصهرة في الفكر والرؤية المحمولة، فنرى انصهار الفرد مع الآخر قومه، حين سئل عنهم وقد باشروا حربًا، فقال" ما ظنّكم بسيوف الله في أيدي أولياء الله، وقد نصرهم الله في سمائه، وسلطهم على أعدائه"[306]، فتذوب المسافات وتتصهر معا في رؤية الجماعة نتيجة الايمان بما حملوا من رؤية تجاه قضيتهم.

في حين تتسع المسافات الفكرية بين المتضادين، فتأخذ لونًا مغايرًا يتجاوز عدم قبول الآخر ومقاطعته كونه يحمل رؤية فكرية مباعدة عن الذات ليصل إلى التمني بحصول الأذى له. نلحظ التقاطع كبيرًا ولا أحد يستطيع ترميمه إذ بات التّمني والتّشفي هو المهيمن، إذ قال الأصمعي: "دعت أعرابية على مولاها فقالت: فجع الله بك ودودًا وادّا، وأشمت بك حسودًا حاسدًا، وسلط عليك همًا يضنيك وجارًا يؤذيك"[307].أي ألم وقع على هذه الأعرابية إذ لم تكتف بالمقاطعة وتنتقل إلى ما هو أبعد بكثير من ذلك، فالمسافات واضحة بحسب الاتفاق والاختلاف، ونلحظ اتساع المسافة بين عبد الله بن الزبير ومستمعيه من أهل مكة، بسبب عدم اتفاق الرؤى المبني على المفارقة، فابن الزبير يميل ويتعلق بأهل الشام بسبب الاتفاق حول قوتهم وشجاعتهم في حين أهل الشام كانوا يميلون إلى مروان وأهل مكة يميلون بابن الزبير، إذ قال ابن الزبير: "لو كانت الرجال تصرف لصرفتكم تصريف الذّهب بالفضّة، أما والله لوددت أن لي بكل رجلين منكم رجلًا من اهل الشام، بل بكل خمسة منكم رجلًا، بل بكل عشرة منكم رجلًا، فما بكم يدرك الثأر، وما بكم يمنع الجار، فقام اليه رجل من أهل البصرة، فقال: والله ما نجد لنا ولك مثلًا إلّا قول الاعشى:

علقتها عرضًا وعلقت رجلًا غيري وعلق أخرى غيرها الرجل"[308]

---

[304] - المصدر نفسه: 1/114-115.
[305] - كتاب الفاضل في صفة الادب الكامل: 1/74-75.
[306] - المصدر نفسه: 2/187.
[307] - المصدر نفسه: 2/190.
[308] - كتاب الفاضل في صفة الأدب الكامل: 1/79.

5-المسافة العقدية (الدينية):

وهي تنشطر بين الاتفاق والاختلاف بحسب المعتقد الديني، وتكون من أشد المسافات اتساعًا عند اختلافها، وذلك باعتقاد كل طرف من الأطراف المتباعدة هو الصواب والآخر على خطأ، ويأخذ الحوار فيه طابعًا جدليًا لا تسوده الشفافية، وذلك بسبب ما يحمل كلّ من المتخاصمين من أبعاد لا يستطيع التنازل عنها، فنجد في مكاتبة ملك الروم إلى الوليد بن عبد الملك والتي جاء فيها "إنّك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها، فإن كان حقًا فقد خالفت أباك، وإن كان باطلًا فقد أخطأت. فلم يدر ما يجيبه، وكتب إلى جميع الأمصار فلم يجبه أحد، فدخل عليه الفرزدق، فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأيت رأيًا، فإن كان حقًا فخذه، وإن كان باطلًا فدعه، قول الله تعالى: **(وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ(79))** فكتب بها الوليد إلى الروم، فلم يجبه"[309]

فالمسافة متسعة بسبب الخلاف الديني، اذ يصل الأمر إلى هدم الكنيسة وهي المكان الذي طالما عبد الله فيها، مما هيأ لملك الروم أن يرد الإجابة على الوليد من خلال الجدلية التي أثارها بين المخالفة والخطأ والمشكل الذي وقع فيه الوليد بمشورة الفرزدق هو التشبيه في الحكم بملك سليمان عليه السلام، وهذا محال، وهذا توظيف مموّه غرضه تسخير الدين من أجل المصالح السياسية ومغالطة جدلية أيضا يروم الوصول إلى هذه الآلية، وغايته البقاء على الاختلاف القائم بين الأديان.

ويتسع الخلاف العقدي ليصل إلى المذهبي، كما حدث في معركة الجمل من خلال ما طرحته عائشة زوج الرسول (صلّى الله عليه وآله) في بيان حملة الحج، ومن خلال الحجج تنبثق جملة من الأسئلة المتضادة على الأجوبة المعروضة هل يتفق الخروج مع المبدأ الأساس ويفوضها للخروج على إمام زمانها وخليفة المسلمين، هل ترث نساء النبي (صلّى الله عليه وآله) الأمور السياسية وتدبير شؤون الأمة؟ على الرغم مما اعلن من الجانب الوجداني من قبل عائشة حيث جاء فيها " أيّها الناس إنَّ لي عليكم حقين، حق الأمومة وحق النصيحة، لا يتهمني منكم إلّا من عصى ربه، قبض رسول الله(صلّى الله عليه وآله) بين سحري ونحري، وأنا إحدى نسائه في الجنة، وبي ميز بين مؤمنكم ومنافقكم...وإنّي أقبلت أطلب بدم الخليفة المنتهكة...فمن ردنا بالحق اتبعناه، ومن ردنا بالباطل قاتلناه"[310].

فالنص يعلن مصرحًا على اتساع المسافة بين الفريقين وعدم قبول أحدهما للآخر على الرغم من المقصدية المعلنة على إصابة المشهد بالضبابية، أي خلافة هذه، وأي آلم يصاب به الإمام علي عليه السلام ونساء النبي تخرج لمقاتلته.

نتائج البحث:

- توصل البحث إلى أن المعرفة تتوهج وتنمو من خلال قدح الأسئلة وليس عن طريق الأجوبة المسكتة.
- تسعى هذه الأوراق إلى الرغبة في إنشاء مجتمع متنوع ومتوازن يسوده القانون ويبتعد عن الأهواء الشخصية.
- البلاغة علم واع ينشده الفرد والدولة من أجل التواصل والعيش المشترك، فيرتديه الفرد في البيت وفي العمل وفي الفكر الذي تطرحه وتنشده الدولة في التفاوض والتقارب والتواصل مع الدول الأخرى في العلاقات الدبلوماسية.
- رصد البحث أن الثقافة الأموية ثقافة إقصائية وذلك من خلال المعتقد الذي تحمله بأنّها أوكلت لها هذه المهمة من السماء فهي غير مجبرة على التفاوض مع رعاياها.
- في الثقافة الشرقية المسافات تقترب وتبتعد على حسب الحاجة والموقف وهيمنة الذات.

---

[309] - المصدر نفسه: 104/1.

[310] - كتاب الفاضل في صفة الادب الكامل: 209/2-210.

- يبدو للبحث في المسافة الموضوعية سيادة المنطق في جو التفاوض مما يدل ثمة علاقة وثيقة بين المساءلة والمنطق في كشف لثام الحوار.
- يجد البحث ثمة استسلام للمتلقي في المسافة السلطوية، وبروز الرأي الواحد في التفاوض.
- تتقارب المسافات الايدلوجية والعقدية إذا كان المتفاوضون متحابين، وتتباعد إذا كانا متخاصمين متباغضين.

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، د.محمد العمري–افريقيا الشرق، المغرب، 2013.
- بلاغة الاقناع في المناظرة، د.عبد اللطيف عادل– ، دار ومكتبة عدنان للطباعة، العراق، بغداد، شارع المتنبي. ط1، 2013م.
- البلاغة العربية قراءة أخرى، د.محمد عبد المطلب–الشرقية المصرية العالمية للنشر، مكتبة لبنان ناشرون ط1، 1997.
- البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار، محمد علي الفارضي، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد من ارسطو الى اليوم: فريق البحث في البلاغة والحجاج، اشراف حمادي صمود، منشورات كلية الاداب–منوبة–تونس، د.ت.
- البيان والتبيين، ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2010م.
- تفسير الجلالين، بتفسير الإمامين الجليلين، العلامة جلال الدين محمد بن أحمد المحلى، والشيخ المتبحر جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، مكتبة الملاح، دمشق 1987م.
- الحجاج عند أرسطو، بحث ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد من أرسطو إلى اليوم: فريق البحث في البلاغة والحجاج، إشراف حمادي صمود، منشورات كلية الآداب–منوبة–تونس، د.ت.
- الحجاج في البلاغة المعاصرة–بحث في بلاغة النقد المعاصر، د.محمد سالم محمد الأمين الطلبة، ، دار الكتاب الجديد المتحدة–بيروت–لبنان. ط1، 2008م.
- الحجاج في الخطاب السياسي المعاصر، د. زكريا السرتي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع–الأردن–أربد، الطبعة الأولى 2014.
- الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، د.سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، أربد، الأردن، ط2 2011م.
- الحجاج والبلاغة وعلم الأشكلة (البلاغة وتحليل الخطاب) مجلة علمية فصلية محكمة، العدد 10، 2017.
- كتاب الفاضل في صفة الأدب الكامل، أبي الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى الوشّاء، تحقيق د.يحيى وهيب الجبوري، دار الغرب الإسلامي–بيروت–لبنان، ط1، 1991م.
- منطق أرسطو، أرسطو طاليس، ترجمة عبد الرحمن بدوي حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات –الكويت–دار القلم، بيروت، لبنان، ط1، 1980.
- الميزان في تفسير القرآن، العلامة محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة دار المجتبى للمطبوعات، إيران، قم، ط1، 2009م.